الروائى الأردنى عبدالرحمن منيف و شرق المتوسط

اثر: بسام علي ربابعة ـ محمد أحمد الزغول
قسم اللغات السامية و الشرقية
جامعه اليرموك - الأردن

(از ص ۱۳۹ تا ۱۵۶)

الملخص:

كان لعبد الرحمن منيف الروائي الاردني المتميز دور ريادى بارز في الرواية التي تناقش قضايا الانسان العربي المعاصر و تحلل الظروف السياسية و الاجتماعية و النفسية التي يعيشها، و تحاول أن تشير إلى مكامن الجروح في محاولة لعلاجها و النهوض بالانسان العربي وقد احتلت روايات عبدالرحمن منيف: شرق المتوسط وشرق المتوسط مرة اخرى و الاشجار و اغتيال مرزوق و أرض السواد و سباق المسافات الطويلة و النهايات و مدن اللمح... منزلة رفيعة فترجم بعضها إلى اللغات الانجليزية و الفرنسية و الروسية.

تهدف هذه المقالة إلى تحليل رواية شرق المتوسط التى تعد واحدة من أهم الروايات السياسية في العالم العربي، إذ إن الموضوع الرئيس الذي يلقي بظلاله على الرواية هو الإنسان في مواجهة السلطة و ما يتعرض له السجناء السياسيون من التعذيب و الاضطهاد في منطقة جغرافية وصفها الكاتب ب(شرق المتوسط)، و قد سعينا في هذه المقالة إلى تحليل رواية شرق المتوسط من خلال العناصر الأساسية لفن الرواية في محاولة للكشف عن المستوى الفني لها، فقدمنا ملخصا للرواية و تحليلا لعناصرها المهمة، آملين أن نكون قد وفقنا في إعطاء رواية شرق المتوسط ما تستحقه من الدراسة و البحث و التحيل.

الكلمات الاسياسية: شرق المتوسط، منيف، تعذيب، سلطة، رواية سياسية.

المقدمة

لاشک أنّ فنّ الرواية قد احتل موقعاً متميزاً في الأدب العربى المعاصر ؛ فقد تمكن هذا الفن الحديث نسبياً خلال فترة زمنية قصيرة من توسيع قاعدة مخاطبيه إلى حدّ بات معه ينافسُ فن الشعر الذي كان طوال تاريخنا الأدبي هرماً عالياً لايكاد يطاوله فنّ ولا يرقى إلى مرتبته أي نوع أدبي آخر، و يكفينا للبرهنة على هذا الادعاء تلک الشهرة الواسعة التي يحظى بها الروائيون العرب بين متذوقي الأدب من القرّاء في العالم العربي، و الأعداد الهائلة من النسخ التي تطبع من كل رواية لهؤلاء في هذا الزمن الذي كسدت فيه بضاعة الأدب، بل إننا إذا أخذنا بعين الاعتبار قدرة الروائيين العرب على الانطلاق من المستوى القطري و العربي إلى المستوى العالمى نجد أنهم تفوقوا في هذا المجال بوضوح على نظرائهم من الشعراء، و من المعروف أنّ أول أديب عربي (نجيب محفوظ) تمكن من الحصول على جائزة (نوبل) للآداب في العالم كان روائياً ولم يكن شاعراً. وبالإضافة إلى ذلک فان أعداداً كبيرة من الروايات العربية قد ترجمت إلى مختلف لغات العالم الحية؛ و هو أمر قد يعود إلى الخصائص النوعية لفنّ الرواية التي تسهل عملية نقله وترجمته إلى اللغات الأخرى خلافاً للشعر الذي تصعب ترجمته إلاّ بشق الأنفس و بعد أن يفقد كماً عظيماً من روحه و جماليته.

كان لعبد الرحمن منيف الروائي الاردني المتميز دور ريادي بارز في الرواية العربية خاصة في مجال الرواية الملتزمة التي تناقش قضايا الإنسان العربي المعاصر، و تحلل الظروف السياسية و الاجتماعية و النفسية التي يعيشها، و تحاول أن تشير إلى مكامن الجروح في محاولةٍ لعلاجها، و النهوض بالإنسان العربي إلى مستوى التعامل الإيجابي معها إذ إن روايات عبدالرحمن منيف: «شرق المتوسط» و «شرق المتوسط مرة آخر» و «الأشجار و اغتيال مرزوق» و «سباق المسافات الطويلة» و «أرض السواد» و «قصة حب مجوسية» و «حين تركنا الجسر» و «النهايات» نالت منزلة رفيعة فترجم بعضها إلى اللغات الانجليزية و الفرنسية والروسية... كما أسهمت

ثقافته المتميزة و اطلاعه على علوم العصر في إغناء هذه التجربة فهو من بين الرواد العرب في مجال العلوم النفطية فقد حصل على شهادة الدكتوراة في هذا التخصص في الستينيات من القرن الماضي من جامعة بلغراد، و خاض غمار النشاط السياسي مبكراً خلال مرحلة مهمة من التاريخ العربي، فعمل في مجال النفط حقبة من الوقت و تولى تحرير مجلة «النفط و التنمية» عام ١٩٧٥ إلى أن تفرغ للكتابه كلياً سنه ١٩٨١م. (زياد الزعبى، ص ٦١٥، ٢٠٠٢م)

اشتغل الدكتور عبدالرحمن منيف بالسياسة منذ فترة طويلة... و لعل هذه التجربة أثرت في شخصيته و جعلته يسعى إلى اكتشاف موقع الإنسان من الظلم و الاضطهاد و الضياع و محاولة معالجة هذه القاضايا بالسبل المتوفرة و من هنا يحدد منيف أهم وظائف الرواية على المستوى الفني و الموضوعي فيقول: «إن المقصود ليس قضاء وقت و انحدار دمعتين كي تريح ضميرك، و إنما يجب عندما تنتهي الرواية أن تبدأ أنت... إن الروايات المهمة يبدأ أثرها عندما تنتهي...» (ماجد السامرائي و جهاد فاضل، ١٢٧) و ينادي منيف بفكرة المساواة في الحرية السياسية و الفكرية و يعكسها من خلال النموذج المثقف كبطل رواية «شرق المتوسط» الذي يكشف من خلاله عن الظروف و الأحوال و المسببات التي أوصلت البطل إلى نهاية مؤلمة في سبيل تشخيص المرض و من ثم البدء بالعلاج.

كما احتلت رواياته منزلة رفيعة من الناحية الفنية، إذ تعد روايته «شرق المتوسط» التي هي موضوع هذه المقالة واحدة من الروايات التأسيسية في المدرسة الواقعية الاشتراكية العربية فعبد الرحمن منيف يرى أن المناح العام المليء بالقهر و الاستبداد و اللامنطق و غياب الديمقراطية و تغييب الشعب هو الذي أفرز الموضوعات الروائية الجادة كموضوع هذه الرواية، و يرى أن الكلمة تحتل مكاناً بارزاً فهي تساوي التضحية ولا تقل ضرورة عن حمل السلاح (نزار عابدين، ص ٧٩) و على الرغم من كل هذا فإن رواية «شرق المتوسط» لم تحظ بما تستحقه من النقد و الدراسة و التحليل ؛ فما

كتب حولها جاء في أغلب الأحيان عرضاً سريعاً لمحتوى الرواية و غرضها الأساسي و ذلک ضمن كتاب أو مقالة تناولت أعمال عبدالرحمن منيف بشكل كلي، أو تناولت الرواية العربية أو السياسية عموماً، عدا عن ذلک قدم أستاذنا الدكتور أحمد الزعبي مقالة حول هذه الرواية يعالج فيها الرؤية العامة لعبد الرحمن منيف في الرواية من خلال فكرة حقوق الإنسان بين الواقع و الخيال (احمد الزعبي، ۱۹۹۳، صص۲۳-۲۴) و ليت استاذنا الفاضل تعدى ذلک إلى تحليل عناصر الرواية و نقدها و الكشف عن ملامحها الفنية.

تهدف هذه المقالة إلى تحليل رواية «شرق المتوسط» من خلال العناصر الرئيسية لفنّ الرواية في محاولة للكشف عن حقيقة المستوى الفني لها، بعيداً عن أنماط المجاملات الأدبية أو الغرق في أهمية موضوعها ووقعه في نفس الإنسان العربي، و حتى تتحقق الفائدة لمن لم يقرأ الرواية فقد ارتأينا أن نقدم ملخصاً للرواية قبل الشروع بتحليلها على أن ذلک لايغني عن قراءة الرواية بالطبع.

ملخص الرواية

في الفصل الأول من رواية «شرق المتوسط» نتعرف على «رجب» بطل الرواية و هو يبحر على ظهر «اشيلوس» المركبة اليونانية التي سافر على متنها إلى فرنسا، و يخبرنا أنه خرج من السجن بعد أن اصيب بمرض الروماتيزم، و أن توقيعه على صک تخليه عن العمل السياسي كان ثمنا لخروجه من السجن... و يروي لنا رجب هذا الفصل و هو مسافر على ظهر السفينة عبر ذاكرته و وعيه ؛ فها هو يجلس على هذه المركبة يروي ما حدث له في السجن من صنوف التعذيب و توقيعه على ذلک الصک... و تظل ذكريات السجن تؤرقه و تؤلمه... و يحاول إلقاء اللوم على جسده الذي لم يعد قادرا على الاحتمال و الصمود، بعد أن بقي خمس سنوات شامخا لايلين... في الفصل الثاني تروي «أنسية» الأحداث و الألم يعتصرها لما حصل

لأخيها، فرجب أصبح لايحتمل رؤية أحد... و نادراً ما يكلمها، فهو كثير الصمت و السبب في هذا أن ضميره يؤنبه على توقيعه ذلك الصك، و تتذكر «أنيسة» ماضي أخيها مقارنة إياه بحاضره الراهن؛ كيف أعتقل وزج به في السجن، وكيف كانت أمها تتصرف؛ فقد كانت تخرج من الفجر و لا تعود إلاّ عند الغروب؛ باحثة عن رجب و بعد أربعة أشهر عرفت أنه مايزال حياً، و تدخل أنيسة في حوار مع أخيها فتخبره كيف ماتت أمهما معتبرة أن الشرطة كانت وراء موتها، و تتذكر كيف أخبرت «رجب» عن شجرة «الحور» التي زرعتها أمه و كيف تألم و حزن و بكى، ثم قررأن يقطع هذه الشجره لأن شجرة الحور تمثل العزة و الأنفة فهي تطاول السماء شموخاً وكبرياء، أما و قد سقط رجب و وقّع الصك فلم بعد هنالك كبرياء فقطع الشجرة... و تروي أنيسه بعض التفاصيل عن أخيها - الذي زار قبر أمه قبل سفره بساعات - و ذكرياته و أوراقه ؛ و ينتهي هذا الفصل و قد قرر «رجب» أن يترك أوراقه عند أخته و يسافر مودعاً أخته و أبناءها.

في الفصل الثالث يظهر صوت «رجب» من جديد على متن «اشيلوس» و هي تبحر عبر المتوسط باتجاه اليونان، و هنا يتجه إلى «اشيلوس» يخاطبها و يبثها أحزانه و آلامه و هواجسه، و ذكرياته و عذابه في السجن... و يبوح لها بأسراره بكل حرية، و يستعيد «رجب» بعضا من حياته السياسية قبل دخول السجن، و صوراً من التعذيب و تثير المشاهد التي يطالعها على «اشيلوس» صنوف العذاب التي تحمّلها في السجن.

في الفصل الرابع نعلم من كلام «أنيسة» أنها تلقت عدة رسائل من «رجب». ثم تتوالى الأحداث و يُستدعى «حامد» زوج «أنيسة» إلى التحقيق و يُهدَّد بالسجن، و في إحدى الرسائل نعرف أن «رجب» يعزم على كتابة رواية يكون موضوعها الرئيس التعذيب، و يتطلع إلى أن يكتبها كل أفراد الأسرة، و أن تكون جديدة في كل شيء و يُطلع «رجب» أخته على فكرة السفر إلى جنيف، و تقديم مذكرة عن العذاب غير

الإنساني الذي يتعرض له السجناء السياسيون...

في الفصل الخامس يطلعنا «رجب» و هو الآن في (مرسيليا/ فرنسا) على الصک الذي وقع عليه ونصه كما يلي: «أرجو أن تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأن مسؤولية موتي في السجن تقع عليكم، و أتعهد أن أتوقف عن أي نشاط سياسي».

لقد حاول رجب أن يكتب و عانى من ذلک الكثير، إلاّ أنه فشل في كتابة شيء، و تنقل من مقهى للآخر و قابل الأطباء كثيراً و أوصوه ألاّ يغضب و ألاّ ينفعل و يحزن، و يقارن رجب بين الجياة في أوروبا و الحياة في الشرق، و يتلقى رجب رسالة يطلب اليه كاتبها العودة إلى الوطن؛ لأن صهره «حامد» موقوف في السجن و لن يخرج إلاّ عند عودته.

وفي الفصل السادس يعود صوت «أنيسة» من جديد و يخبرنا أنها ستنشر أوراق رجب كما هي؛ وفاء لذكرى شقيقها الذي عاد إلى الوطن ليسجن مرة أخرى، ثم يخرج فاقد البصر، و لا يطول الأمر حتى يفارق الحياة و أما «حامد» فيدخل السجن، و تنتهي أحداث رواية «شرق المتوسط».

تحليل الرواية

مقدمة الرواية و الرؤية العامة

قدم عبدالرحمن منيف روايته بنص وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي يؤكد حق كل إنسان أينما وجد في الحرية، و عدم التمييز العنصري و الفكري بسبب العقيدة أو الرأي و تحريم التعذيب و الاضطهاد و انتهاک الحياة الخاصة للإنسان في بيته و أسرته و مراسلاته، إضافة إلى التأكيد على حقوق الإنسان الفكرية و الاجتماعية و العلمية.

بعد هذه المقدمة الهادفة ينقلنا عبدالرحمن منيف إلى عالم تمتهن فيه حقوق

الإنسان بأبشع الصور، فيصور لنا أناساً بلا حقوق بلا ملامح بلا احترام و يطرح الكاتب من خلال هذا الواقع المرير سخريته السوداء لهذا التناقض ما بين حقوق الإنسان المعلنة على الصعيد النظري - الخيالي - و واقع هذه الحقوق الخفية على الصعيد العملي - الفعلي - ليصل إلى فكرته الرئيسة ؛ و هي أن وثيقة حقوق الإنسان مجرد وثيقة حبر على ورق لاعلاقة بينها و بين الواقع الحقيقي.» (احمد الزعبي، ١٩٩٣، ص٢٣).

إن الموضوع الرئيس الذي يلقي بظلاله على الرواية في جميع فصولها هو موضوع الإنسان في مواجهة السلطة في محيط جغرافي عبر عنه الكاتب باسم «شرق المتوسط» ؛ إذ هو الهم الاساسي للرواية و ليس أحد الهموم الرئيسية؛ فهي «تحاول أن تكون صرخة في صحراء الصمت لعل شيئاً يحدث قبل أن يدمّر الإنسان هذه المنطقة تدميراً كاملاً» (نجاح حبيب و جوزيف كروز ١٩٨٢، ص ١٢٢) فهنالک صراع بين السلطة و الفرد و أول مستوياته المستوى المادي أو الجسدي و يتمثل هذا في رجب بطل الرواية التي هي شاهد عيان على عالم السجن و الزنزانة و التعذيب و القتل، ويروي لنا رجب بمرارة ما رآه و تجرعه من أنواع الاضطهاد و التعذيب: «مدّدوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر أطفأوا في ظهري، على رقبتي و داخل أذني كانوا يضحكون أول الأمر و أنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقيّ الطليقتين، رفست مرتين أو ثلاث مرات، و لما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجليّ بقوة... بدأوا يصرخون اعترف...» (عبدالرحمن منيف، ١٩٧٧، ص ١٠٩).

يشتد وقع آهات و أنات رجب في نفس القارئ و ترقى المفارقة في الرواية إلى أعلى مستوياتها عندما يوحي لنا الكاتب بما تم تسجيله من انجازات حضارية و علمية تفوق الخيال في هذا العصر لكن هذه الانجازات و هذا التقدم الحضاري لا يقوى على حفظ أبسط الحقوق المشروعة للإنسان الذي يتعرض لمسخ آدميته و

سحقه جسديا و روحيا و عقليا، لقد جاءت هذه الرواية صرخة احتجاج في صحراء الصمت المطبق على أرجاء الكون في عصر لا تسمع فيه الآذان إلا هدير الآلات و المحركات، و ليس هنالك من يعير أية أهمية لأنّات سجين سياسي يواجه أشد أنواع التنكيل في «شرق المتوسط»؛ إنها صرخةٌ حادة مليئة بالألم و اليأس، و دعوة صادقة تنادي الكون كي يستع صدره ليس للرأي الآخر فقط بل لآراء عديدة لتمضي عجلة لحياة و التطور بشكل أسلم إلى الامام؛ «إن رأيين إفضل من رأي واحد و ثلاثة أفضل من اثنين و أربعة أضمن و خسمة أشمل و هكذا فالعقل يحكم بالخلاف و لكن ليس بالسيف أو الرصاص». (احمد الزعبي، ۱۹۹۳، ص ۲۴)، و رغم ما يبدو في الرواية من إمعان في الواقعية و فضح الواقع السياسي و تعريته و رصد ظواهر الخيبة فيه فإنها «وعدت بمستقبل مشرق من خلال موت «رجب»، ذلك أن في موته حياة للآخرين، فهو لم يمت إلاّ بعد أن خلّف من بعده بذور النضال و المطالبة بالحياة الحرة الكريمة في شخصية «حامد» زوج أخته، و «عادل» ابن أخته، و حتى في شخصية أخته نفسها.» (عيسى قويدر، ۱۹۸۴، ص ۱۶).

فكرة «الموت فی الوطن»

هنالک أسباب و عوامل كثيرة دفعت عبدالرحمن منيف إلى اختيار هذه النهاية لبطل روايته «رجب»، فالعودة إلى أرض الوطن و الموت فيه أو فكرة الموت في أرض الوطن حياة و استمرارية و بشرى بمستقبل مشرق جاءت نتيجة للصراعات التي أفرزها القرن العشرون في مختلف المجالات، فالصراع السياسي و موجات الاحتلال و الاستعمار و مقاومته و كفاح الضعفاء في مواجهة الإقوياء انتجت ردة فعل تمثلت بالمقاومة و التمسک بالأرض و الالتحام بالوطن، و بالتالي إدانة فكرة الهروب و عدم المواجهة أو الانسحاب منها و تلافيها مهما كانت الظروف و المبررات، فالموت فی أرض الوطن حياة، و الحياة في الأرض الغريبة موت و هروب

و جبن (احمد الزعبي، ١٩٩٣، ص ٢٤)، على أن «رجب» هنا لا يصارع عدواً أجنبياً محتلاً بل يصارع الظلم و السلطة التي تستلب أحلام بني جلدته فموته في أرض الوطن أدعى و أولى؛ حتى أن محاولة استعانته بمنظمة العفو الدولية لفضح السلطة و التأثير عليها تبدو و كأنها عمل لايجدي نفعاً في الرواية، فالسلطة تقوم باعتقال زوج أخت «رجب» مما يضطره إلى العودة و المقاومة رغم معرفته بالمصير الذي ينتظره.

الشخصيات

إن معظم شخصيات عبدالرحمن منيف في رواياته: شرق المتوسط، و شرق المتوسط مرة أخرى، و الأشجار و اغتيال مرزوق... شخصيات مثقفة كشخصية رجب، و أهم سمة تميزها هي الرفض للأوضاع التي تحيط بها و هذه الشخصيات هي انعكاس لشخصية الروائي المثقف و السياسي الفعال عبدالرحمن منيف الذي عمل في السياسة لفترة طويلة تعرض على إثرها إلى شتى أنواع الملاحقة و الايذاء حتى أنه اضطر لقضاء معظم حياته خارج وطنه نتيجة للملاحقة المستمرة له، و لذلک فإن روايته «شرق المتوسط» تهدف إلى إبراز وضع الإنسان في هذه المنطقة - شرق المتوسط - من خلال شخصية «رجب» و ما عايشته من أحداث.

إن شخصية «رجب» شخصية نامية متطورة، تنمو مع صفحات الرواية صفحة صفحة، و تتضح معالمها شيئا فشيئا، بدايةٍ تصطدم مع السلطة، و تسجن، ثم ترى مباهج الحياة، و يرافق ذلک المرض و موت الأم، و عوامل أخرى سنعرفها بعد قليل، فيسقط رجب و ينهار أمام جبروت السلطة و تتطاول المحن عليه، ثم يعود إلى النضال من جديد بعد أن يقرر العودة إلى بلده و مواصلة العمل السياسي.

ونلمح ثقافة «رجب» منذ طفولته، فقد كانت غير عادية و عندما كبر - كما تقول أنيسة - «بدأ يقرأ دون توقف، وكلمات أمي و هي تلح عليه أن يقوم ليأكل أو يتوقف عن القراءة بعد أن صاح الديک و لم يبق أحد ساهرا، كانت كلماتها تذهب هباء، و لم

يكن يستجيب إلا إذا خانه السهر أو انتهى الكتاب».(عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۱۵۰)

و هكذا نرى أن المؤلف يمهد الطريق لبطل روايته، فيحصل على شهادة علمية تؤهله لحمل مسؤولية كبيرة، فتنمو شخصيته و تتطور و يدخل السجن، و يدخل «رجب» في عدة اختبارات ينجح فيها، فيتحمل صنوفا من العذاب، و بعد خمس سنوات يضعف و تسهم عدة عوامل و ظروف أخرى في انهيار شخصيته و منها «هدى» - يقول رجب: «كانت هدى أقوى الآمال التي تشدني إلى عالم الحرية، كنت أتصورها مثل بطلة الأساطير لا تمل أبدا من الانتظار» (عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۳۵) و من هذه الظروف موت أمه، يقول رجب «لماذا متّ يا أمي؟ لماذا تركت أنيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم» (نفسه، ص ۳۵) و منها مرض رجب، فقد كان مريضا بالقلب، و كانت أنيسة عاملا آخر من العوامل التي أدت إلى انهياره.

و تستمر شخصية رجب في النمو و التطور، فيسافر إلى فرنسا، و يبدأ جديدة فيقرر السفر إلى جنيف لعرض قضية الإنسان و كرامته على لجنة حقوق الانسان، و لكنه يقرر العودة بعد أن يُخبَر بأن السلطات قبضت على زوج أخته «حامد» و سجنته بسببه، فيعود إلى وطنه ليجد السجن بانتظاره، ثم يخرج منه بعد أن فقد بصره، و بعد أيام قليلة يموت، «و يبدو أن الروائي يصر على منح رجب صفة البطل الملحمي، فهو بطل في كل شيء حتى في كيفية موته تروي أنيسة، فتقول: «كان يهز رأسه بحزن، و لا يتكلم و فجأة رأيت وجهه يعتكر، كأن ألماً حاداً يتلوى في داخله... أتذكر تلك اللحظة المجنونة، و كأنها لا تزال تحت بصري تقع الان، تقلص وجهه، ثقلت أنفاسه، أصابه شحوب شديد، ثم فجأة هز رأسه بقرف متألم و انتهى» (عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۲۱۱) و هكذا نرى «رجب» يسير في الرواية عبر خمس مراحل هي:

المرحلة الاولى: مرحلة النضال و الانتماء للحزب، ثم السجن و التعذيب و هي مرحلة طويلة.

المرحلة الثانية: مرحلة السقوط و الضعف و الاستكانة لأوامر السلطة.

المرحلة الثالثة: مرحلة معاودة النضال و العودة للوطن.
المرحلة الرابعة: مرحلة الانهاك و العمى في سجنه الثاني.
المرحلة الخامسة: و هي الموت، (الموت من أجل الحياة).

السرد

إذا ما التفتنا إلى أسلوب السرد فإننا نرى أن عبدالرحمن منيف تجاوز أسلوب السرد التقريري، فحاول استخدام الأساليب الحديثة؛ فهو يستخدم أسلوب التناوب السردي، إذْ يقسم مهمة السرد بين شخصيتين تتناوبان الحديث فيتحدث رجب عبر فصل كامل، ثم تتبعه أنيسة في فصل لاحق، ثم يعود الحديث إلى رجب في فصل جديد و هكذا حتى نهاية الرواية.

و يستخدم منيف أسلوب الاسترجاع، فيورد نهاية الرواية منذ بدايتها ثم يعود إلى تفاصيل أحداث الرواية، فالفصل الأول من الرواية يقع تحت تيار الوعي فرجب في بيته و هو خارج لتوه من السجن؛ لكنه يعود بنا عبر رحلة تذكرية إلى ماضيه و سجنه و عذابه و رفاقه و سقوطه و عالمه الماضي (عيسى قويدر، ١٩٨٤، ١٤٠)، و تستمر الرواية في الاستغراق في تيار الوعي من خلال الرجع التذكري في مواطن كثيرة من الرواية فرجب يسافر إلاّ أن ذكريات السجن ما تزال تلاحقه، و الصور السوداء القاتمة تلح عليه من حين لآخر، فليجأ إلى السفينة التي يسافر على متنها يخاطبها و يناجيها من خلال مناجاة نفسه أيضاً: قل لهم شيئاً يا رجب، اكذب عليهم، لا لن أقول كلمة واحدة، أصرخ و قد اختفى وجهي و أحس عيني تخرجان... و أصمت لو عرفتِ السجن يا اشيلوس يوماً واحداً لعرفتِ الصمت. (عبدالرحمن منيف، ١٤٥).

كما لجأ عبدالرحمن منيف إلى المونولوج أيضاً فهذا حامد يحدث نفسه و قد بدأ بالتبرم و الضيق من ممارسات السلطة مع رجب «هل يمكن للإنسان أن يعيش بهدوء لا أحد ينجو، الذي يعمل في السياسة و الذي لا يعمل، الذي يحب النظام و الذي

لايحبه» (نفسه، ۱۴۱) و نلاحظ الاسترجاع عند أنيسة و هي تتذكر حديث أمها عن رجب قبل أن تموت» (نفسه ۱۴۹).

و نلاحظ أن صورت الروائي يختلط بصوت الشخصية للتعبير عن فكرة في ذهن الروائي فيجد في شخصيته متنفسا له يعبر عن فكرته هذه، و لعل الفكرة المبثوتة في شخصية رجب صدى لمجموعة أفكار في ذهن منيف أراد أن يوصلها للقارىءمن خلال هذه الشخصية (عيسى قويدر، ۱۹۸۴، ص ۷۸) و نلاحظ هذا أيضا في الرسالة التي كتبها «رجب» أنيسة و التي عبر من خلالها عن رغبته في كتابة رواية عن التعذيب، فنلمح نهج و رؤية عبدالرحمن منيف في العمل الروائي؛ يقول المؤلف على لسان رجب: «كيف يجب أن تكون الرواية، أريدها أن تكون جديدة بكل شيء، أن يكتبها أكثر من واحد، و فيها أكثر من مستوى، و أن تتحدث عن أمور مهمة.. و أخيراً أن لايكون لها زمن» (عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۱۶۲)... و يضيف: «وحتى لا نقع في دوامة قد لانخرج منها، فمن الضروري أن نحدد موضوعا و نكتب فيه، التعذيب مثلا، كيف تتصورين الموضوع؟ كيف يتصوره إنسان من الخارج؟... و طبيعى أيضا أن ننظر من زوايا مختلفة، هذه الزوايا المختلفة ضرورية لكي نرى الشيء من جميع جوانبه، فإذا ارتبط الموضوع أيضا بالأزمان العديدة و الأعمار العديدة أصبح شيئا جديدا» (عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۱۶۳).

و هكذا تبرز رواية شرق المتوسط واضحة من خلال حديث رجب عن روايته التي يحلم بكتابتها، فروايته التي يحلم بها ليس لها زمن و كذلك رواية شرق المتوسط، و هو يريد «أن يكتبها أكثر من واحد، و فيها أكثر من مستوى» و كذلك رواية شرق المتوسط، و أن يكون موضوعها التعذيب، و ما رواية شرق المتوسط إلا كذلك، فعبد الرحمن منيف يضع تصوره للرواية على لسان رجب في تصوره لروايته التي يحلم بكتابتها،فلقد جاءت بصمات المؤلف بمثابة شرح لطبيعة طريقته «إذ تضمنت رسالة رجب إلى أنيسة مشروع الرواية ذاتها و هو مشروع يصعب القول بأنه

يختلف في جوهره عن البناء العام لهذه الرواية فيتحدث منيف بواسطة بديله «رجب» في شرق المتوسط عن هواجسه و آلامه و طموحاته، و على الرغم من أنه ليس و اثقا تماما من جدوى الكتابة، فقد وجد نفسه مضطرا إليها، إذْ يتساءل «ما فائدة الكلمة؟ مَنْ سيقرؤها؟ حتى لو قُرئت فما تأثيرها»، إذْ يرى في لحظات معينة أن «الكمات تبدو مثل أوراق الشجر في بداية الشتاء، مصفرة، ضعيفة حتى إذا صفقتها الريح تطايرت ثم ديست بالأقدام» فإنه يعترف بأن الكتابة الروائية ليست احترافاً بل قد تأتي كضغوط نفسية آيلة للإنفجار و هي ضغوط نجد توافذها في فترة معينة من حياة الكاتب» (محسن الموسوی، ص ٢١٢).

لقد سهل علينا عبدالرحمن منيف، و من خلال تخطيط رجب للرواية فهم القضية التي بنيت في إطارها هذه الرواية المتفردة، فهي جديدة وكتبها أكثر من واحد... لقد تشابكت فيها الأصوات و تشابكت فيها الخيوط و الرؤى، و هي تنصب جمعيها على شيء واحد، هي أكثر من مستوى «مستوليات متراكبة، متسوى المباشرة، و مستوى الحلم، و مستوى الاستدعاء و مستوى التداعی، و مستوى الأنا و الأنت يتبادلان المواقع، لماذا أرادها عبدالرحمن أو لنقل رجب بلا زمن... إن الزمان يساويها من الخارج، لكنه ينكسر معها من الداخل إنها... إنها اعترافات.» (عبدالحميد محادين، ١٩٨٣، ص٦٨).

لقد حلم البطل في أن يستعمل الكلمة في كشف واقع العذاب و الضياع و أزمة الحرية المفقودة في الوطن؛ شرق البحر المتوسط، بكتابة تحتج و تكشف و تدين التعذيب و الاضطهاد و القهر و تحرير بيانات للجان حقوق الانسان و الصليب الأحمر الدولية بجنيف عن محنة السجناء السياسيين في الوطن العربي محاولاً انقاذهم، و خلال ذلک يتأرجح البطل بين اليأس و الرجاء ،و محاولة شحذ الإرادة و استعادة الثقة و القدرة على عمل شيء مفيد لقضية الحرية» (احمد عطية، ص ٤٦).

شرق المتوسط و ميرامار

اتبع عبدالرحمن منيف تقنية جديدة في السرد الروائي كان قد استخدمها نجيب محفوظ في رواية «ميرامار» فرجب و أنيسة يرويان الحدث نفسه من جوانب مختلفة في وقتين مختلفين، و هنا تبرز أهمية هذا النوع من السرد في أن الحدث الواحد يقدم لنا من خلال زاويتين لا من زاوية واحدة، «و رجب و أنيسه هما الخطان الممتدان داخل و حول الأحداث بهما تبدأ و بهما تنتهي، و هما اللذان يرويان في وقتين مختلفين حدثاً واحداً... لكن من جوانب مختلفة كذلك... أحدهما يروي المقدمات و الآخر لايروي إلاّ النتائج... فرجب يتحدث عن الفعل من المركز ذاهباً إلى الأطراف و أنيسة تلتقط الأحداث و ترحل إلى المركز فتكمل الدائرة بالحدث و امداداته الانسانية» (عبدالحميد محادين، ۱۹۸۲، ص ۶۶) هذا في شرق المتوسط، أما في «ميرامار» فنلاحظ أن المحتوى قدم مرات عديدة من وجهة نظر الشخصيات الأساسية في الرواية، إذْ تبدأ الرواية بعامر وجدي الذي يقدم لنا ما يدور في «بنسيون ميرامار» من خلال رؤيته هو، و كذلک يقدم لنا كل من حسني علاّم و منصور باهي و سرحان البحيري المحتوى من رؤيتهم الخاصة، و لذلک نجد أربعة أصوات في «ميرامار» تقدم المحتوى منذ دخولها «بنسيون ميرامار» و حتى وقوع الجريمة، و كلهم يتحدثون عن «زهرة» الخادمة التي تعمل في هذا البنسيون.

و بهذا نلاحظ أن الحدث واحد ويرويه اثنان عند عبدالرحمن منيف، و هو واحد كذلک عند نجيب محفوظ؛ في حين يرويه أربعة، و إذا ما نظرنا إلى البطل في «شرق المتوسط» فإننا نجد أنه رجب، أما البطل الحقيقي في «ميرامار» فهي «زهرة» التي تنصب عليها أحداث الرواية ؛ فقد كانت بؤرة الأحداث التي تناولتها جميع الشخصيات.

اللغة

أما لغة عبدالرحمن منيف فقد حاولت خدمة موضوعه الروائي؛ فروايته تتمحور حول القهر و الاضطهاد، و لذلک نجد أن روايته تميل إلى الحدة و التوتر فتنقل أشكال القهر و الاضطهاد التى تعانيه الشخصية الروائية، والانعكاسات النفسية من مثل: القلق و التوتر و الثورة، و ينعكس كل هذا عبر لغة مشحونة بالحدة والتوتر، فنلاحظ أن اللغة تعكس الجو المأزوم و المشحون بين رجب و أمه: «قالت بعصبية جامحة و كأن الجرح الذي أصابها لم يترک لها فرصة کي تفكر بهدوء:

«مئة جهنم، و أكون مجنونة إذا سألت عنک».

«مئة جهنم، و لا أريد أحد أن يسأل عني» (عبدالرحكمن منيف، ١٩٧٧، ص ٧٩).

و لغة منيف لغة فصيحة لا تكاد تحيد عن الفصاحة؛ بيد أنه يستخدم اللغة الدارجة أحيانا، و يستعمل بعض الألفاظ و الشتائم، و يكفي أن نلقي نظرة سريعة على الرواية حتى ندرک كثيراً من هذه الالفاظ التي اضطر المؤلف أحيانا إلى حذفها لأنها تمس الذوق العام.

الزمان و المكان

و أما الزمان و المكان - و ان كان هذا العنصر غير مهم من الناحية الأدبية - فنلاحظ أن المؤلف ترک تخمين الزمن للقارىء في روايته هذه التي يكتبها تاريخا مفتوحا لعلاقة الفرد بالسلطة، و من هنا يأخذ الرمز الزمني أهميته للموضوع الروائي فلا نستطيع أن نعرف في أي زمن حصلت أحداثها، و في أي تاريخ بدأت، و متى انتهت، يكتب بطلها في هذا الصدد إلى شقيقته قائلا: «أريدها أن تكون جديدة بكل شيء... و أخيراً أن لايكون لها زمن».

و أما المكان فيستطيع القارىء ابتداء من عنوان الرواية أن يتأكد من أن وطن «رجب» هو شرق المتوسط في المنطقة التي يصفها «رجب» بقوله «هل يتصور أن

على الشاطیء الشرقي للمتوسط إنسان واحد يمكن أن يموت من الفرح» (عبدالرحمن منيف، ۱۹۷۷، ص ۱۸۷) أو عندما يخاطب الباريسيين: «آه يا أهل باريس لو جئتم‌بكتبكم إلى شاطیء المتوسط الشرقي لقضيتم حياتكم كلها في السجون» (نفسه، ص۱۸۸) و لا نستطيع أن نعرف في الرواية ما هو المقصود تحديدا «شرق المتوسط» هل هو شرق كمفهوم جغرافي مقابل الغرب، أو غير ذالک؟ و على الرغم من ذلک فاننا نستطيع أن نزعم أن المقصود بـ«شرق المتوسط» المنطقة الجغرافية الممتدة من ضفاف الشاطیء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط و حتى أعماق الصحراء و هذا واضح في الرواية في مواطن كثيرة، و منها قول المؤلف: «آه لو تنظرين لحظة واحدة في مقر سرداب من الآف السراديب المنشورة على شاطیء المتوسط الشرقي و حتى الصحراء البعيدة» (نفسه، ص ۱۷۷) و قوله: «تلک الارض الممتدة على الشاطیء الشرقي للمتوسط و حتى الصحراء البعيدة» (نفسه، ص ۱۷۷) و قوله «تلک الارض الممتدة على الشاطیء الشرقي للمتوسط حتى أعماق الصحراء» (نفسه، ص ۲۰۷) و قوله «و أنتِ يا بلاد الشاطیء الشرقي، بدءا من ضفاف البحر و حتى أعماق الصحراء» (نفسه، ص ۱۶۹) فهذا المؤلف نفسه يؤكد أن مكان الرواية المكان الممتد من الشاطیء الشرقي للبحر و حتى أعماق الصحراء، و هو يؤكد أن المكان الشاطیء الشرقي و بالتالي نستبعد الأماكن الاخرى.

كلمة أخيرة

في الختام يبقى السؤال الذي كان يلح علينا منذ القراءه الأولى للرواية: هل كانت «شرق المتوسط» كما أراد لها عبدالرحمن منيف و صرّح بذلک على لسان بطله «رجب» روايةً «جديدة في كل شيء»؟!

من المؤكد أن الموضوع الأساس للرواية - و هو الإنسان في مواجهة السلطة في العالم العربي - ليس موضوعاً جديداً، بل يمكن القول إن بعض الروائيين العرب قد

تطرقوا إليه بشكل أو بآخر في رواياتهم، فقد عالجه نجيب محفوظ بقوة في رواية «اللص و الكلاب».

أما فكرة أن الموت في أرض الوطن تعني الحياة و البقاء في حين أن الموت خارجه يعني العدم و الاغتراب و النسيان، فقد تكررت في رواياتٍ عديدةٍ معاصرة و متقاربة زمنياً بشكل يصعب معه الحكم بجدتها عند عبدالرحمن منيف لأن زمن تأليف الرواية هنا هو المهم، و ليس تاريخ انتشارها لكن المؤكد هو أن الطيب صالح في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» قد سبق منيف إليها، و نلاحظ هذه الفكرة كذلك في رواية حنا مينة «الثلج يأتي من النافذة» و في رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» إضافة إلى مسرحيات و قصائد و قصص قصيرة متعددة.

بالنسبة للتقنيات الفنية كأسلوب الاسترجاع و التناوب السردي و تعدد الرواة و تعدد مستويات الرواية، كمستوى المباشرة، و الحلم و الاستدعاء، و التداعي، و الأنا و الأنت اللذين يتبادلان المواقع، ففي هذه العناصر لم تكن الرواية جديدة بمعنى الكلمة و قد أشرنا إلى ذلك في الموازنة بين «شرق المتوسط» و «ميرامار» و على الرغم من ذلك يمكن القول بأن عبدالرحمن منيف كان واحداً من الروّاد في الرواية العربية في استخدام هذه التقنيات ، و الاستفادة منها لخدمة النص بشكل متميز.

النتيجة:

يتجلى الإبداع في رواية الأديب الأردني عبدالرحمن منيف «شرق المتوسط» في ثلاثة عناصر رئيسة: العنصر الأول هو الزمن و انكساره داخل الرواية مع مساواته لها و تناميه و انسجامه معها من الخارج. والعنصر الثاني هو المكان و ذلك الامتداد المرموز لجغرافيا الرواية من ساحل المتوسط إلى قلب الصحراء البعيدة، و في هذين العنصرين يتجنب منيف التحديد لخدمة هدف بعيد في الرواية لتنسجم مع انسانية موضوعها و مقدمتها الهادفة، أما العنصر الثالث الجديد في الرواية فهو الجرأة في

عرض موضوع الرواية و رؤيتها العامة للأوضاع السياسية و الاجتماعية في «شرق المتوسط»، و معالجتها لموضوع تعذيب السجناء السياسيين بجرأة قلما نراها في الرواية العربية مع ملاحظة حساسية الموضوع و خطورته، ولا تفوتنا الإشارة إلى مقدمة الرواية الرائعة والمرموزة، التي لا يمكن فصلها عن مضمون الرواية لكونها مقدمة، فهي تضرب في عمق الهدف و الغرض الأساسي للرواية، و هكذا نرى أن «شرق المتوسط» لم تكن جديدة على المستوى الفني و المضمون والاسلوب إذا أخذت تلك المستويات منفردة كل على حدة، و لكنها جديدة حقاً إذا نظرنا إلى جميع هذه المستويات باعتبارها وحدة متكاملة و نتاج متميز لأحد أكثر الروائيين الأردنيين التزاما و التصاقا بقضايا وطنه و أمته.

المراجع:

١- أحمد الزعبي، مقالات في الأدب و النقد، الطبعة الأولى، ۱۹۹۳، مكتبة الكتاني، إربد الاردن.

٢- احمد محمد عطية، الرواية السياسية، دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، دون تاريخ.

٣- زياد الزعبي و آخرون، مصطفى و هبي التل (عرار) قراءة جديدة، الطبعة الأولى، مؤسسة عبدالحميد شومان و وزارة الثقافة - الأردن و المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ۲۰۰۲.

٤- عبدالجبارعباس، في النقد القصصي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

٥- عبدالحميد محادين، رؤية في الظل، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٦- عبدالرحمن منيف، شرق المتوسط، منشورات وزارة الإعلام - العراق، ١٩٧٧ م.

٧- عيسى قويدر، عبدالرحمن منيف روائياً، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك- الاردن، ١٩٨٤م.

٨- ماجد السامرائي و جهاد فضل: مقابلة مع عبدالرحمن منيف، مجلة الفكر العربى المعاصر، عدد ٦،٧.

٩- محسن الموسوي، الرواية العربية: النشأة والتحول، دار الأدب بيروت، دون تاريخ.

١٠- نجاح حبيب و جوزيف كروز «تعيين الشخصية ذاتها في رواية شرق المتوسط لبعد الرحمن منيف»، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ٢٥، ١٩٨٢.

١١- نجيب محفوظ، ميرامار، الطبعة الثانية، دارالقلم، بيروت، ١٩٧٤.

١٢- نزار عابدين، مقابلة مع عبدالرحمن منيف، مجلة عالم المعرفة، عدد ٢٠٤.